

# قصيدة ابن بهيج الأندلسي في مديح السيدة عائشة دراسة لإصطفاء اللفظ ودلالاته

أسامة اختيار\*

**İbn Behîc el-Endelûsî'nin Hz. Aişe'ye Methiyesi (Lafız ve Delalet Açısından Bir Araştırma)**

**Özet**

Bu araştırma, h. V. yüzyıl şairlerinden olan İbn Behîc el-Endülûsî'nin, Hz. Aişe'ye methiye olarak yazmış olduğu kasideyi lafız ve delalet açısından ele almaktadır. Bu araştırmada söz konusu kaside mütekellim zamiri ve mânaya delaleti, şairin özel ismi zamire tercih etmesi, delil getirirken telmihe başvurusu, tekrar edilen lafızlarla birlikte zıt anlamlı kelimeleri kullanıp kullanmamasının nedenleri yönlerinden ele alınacaktır. Bu kaside, kelimelerini dinî ve Ümmü'l-müminin Hz. Aişe'ye gayret besleyen bir üsluptan seçmiştir. Bundan ötürü de şair, mütekellim zamiri kullanmaktan kaçınmaya çalışmış ve kasideyi Hz. Aişe'nin dili üzerinden aktarmıştır. Araştırmanın asıl konusu da bu lugavî olgu oluşturmaktadır.

**Anahtar Kelimeler:** İbn Behîc el-Endelûsî, Lafız ve Delalet, Methiye, Tekrar ve Delalet.

**Ebn Bahig Al-Andalusian poem in praise of Mrs. Aisha – Study in the pronunciations and its significances**

**Abstract**

This research examines Ebn Bahig Al-Andalusian poem in praise of Mrs. Aisha, wife of the Prophet Muhammad. This poem is important because of the religious value of Lady Aisha and because of the eloquence of the poet to write a poem. This researcher studied the following points: Semantics of the Prominent pronouns.

\* Doç. Dr. Ousama EKHTIAR, Bingöl Üniversitesi İlahiyat Fakültesi [ousama67@gmail.com].



معجمه، فقال: «أبو عمران موسى بن محمد الأندلسي»<sup>5</sup>. أمّا (ابن بهيج) فيظَهَرُ لنا أنّها كنيته التي عُرفَ بها، حتّى غَلَبَتْ على اسم أبيه.

من رجال النّصف الثّاني من القرن الخامس الهجريّ، لا تُعرَفُ سنة وفاته، لكنّه كان حيّاً سنة (496هـ). ذكر ذلك ابنُ خير الإشبيليّ (ت 575هـ) بعد رواية بيتين من شعر ابن بهيج سماعاً، قال: «حدّثني بهما الشيخ الوزير أبو جعفر عبد الله بن محمد بن زيدون المخزوميّ رَحِمَهُ اللهُ مناولاً منه لي، قال حدّثني بهما الحاجُّ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عيَّاش العبديّ المرشانيّ رَحِمَهُ اللهُ قراءةً عليه عن قائلهما أبي عمران بن بهيج رحمه الله قراءةً عليه، لَقِيَهُ بمصر في سنة 496هـ»<sup>6</sup>. وذكر ذلك التّاريخُ كتابَةَ القضاعيّ (ت 655هـ) في ترجمة العبديّ، قال: «محمد بن أحمد بن عيَّاش العبديّ من أهل إشبيلية يُعرَفُ بالمرشانيّ، ويكنّى أبا عبد الله، له رحلةٌ سمع فيها من أبي عمران موسى بن بهيج الواعظ بعضَ منظومِهِ بمصرَ في سنة ستٍ وتسعينَ وأربعمئة»<sup>7</sup>.

تعدُّ قصيدته في مدح أمّ المؤمنين عائشة من القصائد التي لم يَلْتَقِ إليها الباحثون بالدراسة الفنّية، وقد حقّق مَنّتها الأستاذ (نظام محمد صالح يعقوبي) وقرأها في الحرم المكيّ على جملة من العلماء ذكّرهم في المقدمة، وحقّقها عن نسختين مخطوطتين وجدّهما في المكتبة البريطانيّة ومكتبة جامعة أكسفورد<sup>8</sup>، ولا شكّ في أنّ أهميّة القصيدة تأتي من جهتين؛ الأولى:

٥ ابن حجر العسقلانيّ (أحمد بن عليّ، أبو الفضل): المعجم المفهرس أو تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة، تحقيق محمد شكور المياديني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998م، 1/ 415. مسند السّماع رقم 1913.

٦ ابن خير الإشبيليّ (محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأمويّ، أبو بكر): فهرسة ابن خير، ص ٥٧٣. السّماع رقم ٥٥١١.

٧ القضاعيّ (محمد بن عبد الله، أبو عبد الله): التّكملة لكتاب الصّلة، 1/ 923 - التّرجمة رقم 4611.

٨ ابن بهيج (موسى بن محمد بن عبد الله، أبو عمران): القصيدة الوضّاحيّة في مدح السيدة عائشة أمّ المؤمنين، تحقيق نظام محمد صالح يعقوبي، دار البشائر، بيروت، ط 1، 2002م، ص 9.

تتعلق بقيمتها الموضوعية، فهي مدح أم المؤمنين، والثانية: تتعلق بقيمتها الفنية، ولذلك رأيت أنه من الضرورة أن ألتفت إلى العناية الفنية بنصها، ولا سيما من ناحية معجمها اللفظي ودلالاته.

وقبل أن أمضي في تحديد محاور الدراسة اللفظية للقصيدة أثبت أولاً متن أبياتها، وهي ستة وخمسون بيتاً<sup>9</sup>:

ما شان أم المؤمنين وشانني؟  
 هدي المحب لها وذل الشاني  
 إني أقول مبيناً عن فضلها  
 ومترجماً عن قولها بلساني  
 يا مبغضي لا تأت قبر محمد  
 فالبيت بيتي والمكان مكاني  
 إني خصصت على نساء محمد  
 بصفات بر تحتهن معان  
 وسبقتهن إلى الفضائل كلها  
 فالسبق سبقي والعنان عناني  
 مرض النبي ومات بين ترابي  
 فاليوم يومي والزمان زماني  
 زوجي رسول الله لم أر غيره  
 الله زوجني به وجباني  
 وأتاه جبريل الأمين بصورتي

فَأَحَبَّنِي الْمُخْتَارُ حِينَ رَأَيْتَنِي  
أَنَا بِكُرْهِ الْعَذْرَاءِ عِنْدِي سِرُّهُ  
وَضَجِيغُهُ فِي مَنْزِلِي قَمَرَانِ  
وَتَكَلَّمَ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِحُجَّتِي  
وَبِرَاعَتِي فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ  
وَاللَّهُ خَفَّرَنِي وَعَظَّمْ حُرْمَتِي  
وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ بَرَّانِي  
وَاللَّهُ فِي الْقُرْآنِ قَدْ لَعَنَ الَّذِي  
بَعْدَ الْبِرَاعَةِ بِالْقَبِيحِ رَمَّانِي  
وَاللَّهُ وَبَّخَ مَنْ أَرَادَ تَنْقِصِي  
إِفْكَاً وَسَبَّحَ نَفْسَهُ فِي شَانِي  
إِنِّي لِمُحْصَنَةٌ الْإِزَارِ بَرِيئَةٌ  
وَدَلِيلُ حُسْنِ طَهَارَتِي إِحْصَانِي  
وَاللَّهُ أَحْصَنَنِي بِخَاتِمِ رُسُلِهِ  
وَأَدَّلَ أَهْلَ الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ  
وَسَمِعْتُ وَحْيَ اللَّهِ عِنْدَ مُحَمَّدٍ  
مَنْ جِبْرَائِيلَ وَنُورُهُ يَغْشَانِي  
أَوْحَى إِلَيْهِ وَكُنْتُ تَحْتَ ثِيَابِهِ  
فَحَنَّا عَلَيَّ، بِثَوْبِهِ [خَبَّانِي]<sup>10</sup>

١٠ في الأصل «خَبَّانِي» كذا ذكره المحقق انظر: ابن بهيج، القصيدة الوضاحية في مدح السيدة عائشة، حاشية المحقق: ص ٢٤. قلت: لا يصح، يخلُّ به الوزن، والصواب ما أثبتته في المتن بين معقوفتين، كذلك لا يجوز (خَبَّانِي) من دون تضعيف، إذ يستقيم به الوزن ويضطرب المعنى.

مَنْ ذَا يُفَاخِرُنِي وَيُنْكِرُ صُحْبَتِي  
 وَمَحَمَّدٌ فِي حُجْرِهِ رَبَّانِي؟  
 وَأَخَذْتُ عَنْ أَبِي دِينَ مُحَمَّدٍ  
 وَهُمَا عَلَى الْإِسْلَامِ مُصْطَحِبَانِ  
 وَأَبِي أَقَامَ الدِّينَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ  
 فَالْتَّصَلُ نَصْلِي وَالسَّنَانِ سِنَانِي  
 وَالْفَخْرُ فَخْرِي وَالْخِلاَفَةُ فِي أَبِي  
 حَسَنِ بِهَذَا مَفْخَرًا وَكَفَانِي  
 وَأَنَا ابْنَةُ الصَّدِّيقِ صَاحِبِ أَحْمَدَ  
 وَحَبِيبِهِ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ  
 نَصَرَ النَّبِيَّ بِمَالِهِ وَفِعَالِهِ  
 وَخُرُوجِهِ مَعَهُ مِنَ الْأَوْطَانِ  
 ثَانِيهِ فِي الْغَارِ الَّذِي سَدَّ الْكُوَى  
 بِرِدَائِهِ أَكْرَمَ بِهٍ مِنْ ثَانِ  
 وَجَفَا الْغِنَى حَتَّى تَخَلَّلَ بِالْعَبَا  
 زُهْدًا وَأَدْعَنَ أَيَّمَا إِذْعَانِ  
 وَتَخَلَّلَتْ مَعَهُ مَلَائِكَةُ السَّمَا  
 وَأَتَتْهُ بِشَرِّىَ اللَّهِ بِالرِّضْوَانِ  
 وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَخْشَ لَوْمَةَ لَائِمٍ  
 فِي قَتْلِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالْغُدْوَانِ

قَتَلَ الْأَلَى مَنَعُوا الزُّكَاةَ بِكُفْرِهِمْ  
وَأَدَّلَ أَهْلَ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ  
سَبَقَ الصَّحَابَةَ وَالْقَرَابَةَ لِلْهُدَى  
هُوَ شَيْخُهُمْ فِي الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ  
وَاللَّهِ مَا اسْتَبَقُوا لِنَيْلِ فَضِيلَةٍ  
مِثْلَ اسْتِبَاقِ الْخَيْلِ يَوْمَ رِهَانِ  
إِلَّا وَطَرَ أَبِي إِلَى عَلِيَّائِهَا  
فَمَكَانُهُ مِنْهَا أَجَلٌ مَكَانِ  
وَيْلٌ لِعَبْدِ خَانَ آلِ مُحَمَّدٍ  
بِعَدَاوَةِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَخْتَانِ  
طُوبَى لِمَنْ وَالَى جَمَاعَةَ صَحْبِهِ  
وَيَكُونُ مِنْ أَحْبَابِهِ الْحَسَنَانِ  
بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ أُلْفَةً  
لَا تَسْتَحِيلُ بِنَزْعَةِ الشَّيْطَانِ  
هُمْ كَالْأَصَابِعِ فِي الْيَدَيْنِ تَوَاصِلًا  
هَلْ [تَسْتَوِي] كَفٌّ بَغِيرَ بَنَانِ<sup>11</sup>؟  
حَصِرَتْ صُدُورُ الْكَافِرِينَ بِوَالِدِي  
وَقُلُوبُهُمْ مَلْنَتْ مِنَ الْأَضْغَانِ  
حُبُّ الْبِتُولِ وَيَغْلِيهَا لَمْ يَخْتَلِفْ

11 في الأصل (يستوي كَفٌّ) تحريفٌ، والصَّوَابُ (تستوي)؛ لأنَّ لفظ الكفِّ مؤنَّثٌ. انظر ابن منظور (محمد بن مكرم الأنصاري): لسان العرب، تحقيق: أمين محمد عبد الوهَّاب، محمد الصادق العبيدي، دار إحياء الثَّراث العربي، بيروت، ط 3، 1991م. مادة: كفف.

مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ فِيهِ اثْنَانِ  
 أَكْرَمُ بِأَرْبَعَةِ أُمَّةٍ شَرَعْنَا  
 فَهُمْ لِبَيْتِ الدِّينِ كالأَرْكَانِ  
 نُسَجَّتْ مَوَدَّتُهُمْ سَدَى فِي لُحْمَةٍ  
 فَبِنَاوَهَا مِنْ أَثْبَتِ البُنْيَانِ  
 اللهُ أَلْفَ بَيْنٍ وَدَّ قُلُوبِهِمْ  
 لِيَغِيظَ كُلَّ مُنَافِقٍ طَعْنَانِ  
 رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ صَفَتْ أَخْلَاقَهُمْ  
 وَخَلَّتْ قُلُوبُهُمْ مِنَ الشَّيْءِ نَانِ  
 فَدَخُولُهُمْ بَيْنَ الأَحِبَّةِ كَأَفْئَةٍ  
 وَسَبَّابُهُمْ سَبَبٌ إِلَى الحَرَمَانِ  
 جَمَعَ الإِلَهُ المُسْلِمِينَ عَلَى أَبِي  
 وَاسْتَبَدُّوا مِنْ خَوْفِهِمْ بِأَمَانِ  
 وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نُصْرَةَ عَبْدِهِ  
 مَنْ ذَا يُطِيقُ لَهُ عَلَى خُذْلَانِ؟  
 مَنْ حَبَبِي فَلْيَجْتَنِبْ مَنْ سَبَبِي  
 إِنْ كَانَ صَانَ مَحَبَّتِي وَرَعَانِي  
 وَإِذَا مُحِبِّي قَدْ أَلْظَمَ بِمُبْغِضِي  
 فَكَلَامُهُمَا فِي البُغْضِ مُسْتَوِيَانِ  
 إِنِّي لَطَيِّبَةٌ خُلْفِيَّتُ لَطِيْبِ



وَنِسَاءُ أَحْمَدَ أَطِيبُ النَّسْوَانِ  
إِنِّي لِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ أَبِي  
حُبِّي فَسَوْفَ يَبُوءُ بِالْخُسْرَانِ  
اللَّهُ حَبِيبِي لِقَلْبٍ نَبِيٍّ هُوَ  
وَإِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هِدَانِي  
وَاللَّهُ يُكْرِمُ مَنْ أَرَادَ كَرَامَتِي  
وَيُهَيِّنُ رَبِّي مَنْ أَرَادَ هَوَانِي  
وَاللَّهُ أَسْأَلُهُ زِيَادَةَ فَضْلِهِ  
وَحَمْدَتَهُ شُكْرًا لِمَا أَوْلَانِي  
يَا مَنْ يَلُودُ بِأَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ  
يَرْجُو بِذَلِكَ رَحْمَةَ الرَّحْمَنِ  
صِلْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَحْدُ  
عَنَّا فَتَسْنَلِ أَبَّ حُلَّةِ الْإِيمَانِ  
إِنِّي لَصَادِقُهُ الْمَقَالِ كَرِيمَةٍ  
إِنِّي وَالَّذِي ذَلَّتْ لَهُ الثَّقَلَانِ  
خُذْهَا إِلَيْكَ فَاِتِّمًا هِيَ رَوْضَةٌ  
مَحْفُوفَةٌ بِالرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ  
صَلَّى إِلَاهُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ  
فَبِهِمْ تُشْتَمُّ أَزَاهِرُ الْبُسْتَانِ  
أَهْمِيَّةُ هَذِهِ الدَّرَاسَةِ وَمَحَاوِرُهَا:

من المعلوم أنّ بعض النقاد الأقدمين أحدثوا خصومةً مُفتَعَلَةً بين اللفظ والمعنى، فَظَهَرَ أنصارُ اللَّفْظِ، وأنصارُ للمعنى، ولا أجدُ هذه الخصومةَ قد أتتْ إلا مِنْ مداخلِ الكلاميين، وصار الشعرُ عند أنصار المعنى على اللفظ حلبةً للعراكِ تصطرح فيها الأفكارُ لابتكارِ المُغْلَقِ من المعاني، وصار الشعرُ عند أنصار اللفظ ألعوبةً تُضارِعُ عَبَثَ الوليدِ بالكلام، والحقيقةُ أنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى أشبهُ ما تكونُ بعلاقة الجسد بالروح، فإذا كان اللفظُ الجسدَ، فكذلك المعنى روحُه التي تسري فيه. أمّا الفصلُ بينهما فيكون فصلاً تحليلياً مؤقتاً، إذ لا بدَّ من إعادة تركيب اللفظ في المعنى لمعرفة سبب اصطفاء لفظٍ مختارٍ من دون غيره للتعبير عن معنى مخصوصٍ في التركيب اللغويِّ، وقد قال أبو هلال العسكريُّ (ت 395هـ): «الكلامُ إذا كان لفظه غناً، ومعرضه رثاً؛ كان مردوداً، ولو احتوى على أجلِّ معنى وأنبه»<sup>12</sup>، وهذا القولُ يدلُّ على أنّ اللفظ ليس عَرَضاً من اللغة خارجاً عن جوهر المعنى، لذلك نجد ابن رشيقي القيروانيَّ (ت 456هـ) يبني العلاقة بينهما على صورة العلاقة بين الجسد والروح، فيقول: «اللفظُ جسمٌ، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يَضَعُفُ بضعفه، ويقوَى بقوِّته، فإذا سلّمَ المعنى، واختلَّ بعضُ اللفظ؛ كان نقصاً للشعر وهُجْنَةً عليه، كما يَعْرِضُ لبعض الأجسام من العَرَجِ والشَّلَلِ والعَوَرِ وما أشبه ذلك، من غير أن تذهب الروحُ، وكذلك إن ضَعُفَ المعنى، واختلَّ بعضُه؛ كان للفظ من ذلك أوفر حظاً، كالذي يَعْرِضُ للأجسام من المرض بمرض الأرواح، ولا تجدُ معنى يختلُّ إلا من جهة اللفظ وجزيه فيه على غير الواجب»<sup>13</sup>.

تُظهِرُ هذه الدراسةُ أهميّة اصطفاء اللفظ للدلالة على المعنى، وهي تتخذُ من القصيدة المذكورة مجالاً للإجراء النقديِّ التّطبيقيِّ لهذه الظاهرة، فعلامٌ تدلُّ ظواهر الاصطفاء اللفظيِّ في هذه القصيدة؟ وهل كان الشاعر موقفاً

١٢ أبو هلال العسكريُّ (الحسن بن عبد الله بن سهل): كتاب الصناعتين الكتابية والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩١م، ص ٧٦.

١٣ ابن رشيقي القيروانيُّ (الحسن بن رشيقي، أبو علي): المُعَدَّة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط ٥، ١٩٩١م، ١/ ٤٢١.

في اختيار الحقول اللفظية من المخزون اللفظي المحتَمَل، وما دلالاتُ العدول عن لفظٍ إلى غيره؟.

للإجابة عن هذه الأسئلة نُجري الخطَّة الآتية لِنناقش من خلالها اصطفاء اللفظ ودلالاته في القصيدة:

- اصطفاء ضمير المتكلم ودلالاته.
- إثارة الإظهار على الإضمار في العَمِيَّة.
- إيماء اللفظ إلى الشاهد قياماً بالحُجَّة.
- الأضداد حضورها أو غيابها في نسيج التكرار اللفظي.

### 1. اصطفاء ضمير المتكلم ودلالاته

39

في الأبيات مئةٌ وثمانيةٌ وعشرون ضميراً بارزاً، تدلُّ على المتكلم والمخاطب والغائب، منها ثلاثةٌ وستون ضميراً للمتكلم، أي ما يعدُّ نحو نصف الضمائر البارزة كلها، والبقية للخاطب أو الغيبة.

يعود ضمير المتكلم إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ويعود في مواضع أخرى إلى الشاعر صاحب القصيدة، ونلاحظ أن الشاعر بدأ الأبيات بثلاث كلماتٍ تشتمل على ضمير المتكلم العائد إليه (ما شأن أم المؤمنين وشأنني... إنني أقول... عن قولها بلساني)، ثم يغيب شخص الشاعر المتكلم عن القصيدة، وتعود ضمائر المتكلم كلها بعد ذلك إلى أم المؤمنين عائشة، فعلام تدلُّ هذه الظاهرة اللفظية؟.

يدلُّ هذا الأسلوب على اصطفاء مقصود لتوجيه الضمير في القصيدة، ذلك أن الأسلوب «يمثل اختياراً بين مدخّر من الإمكانيات»<sup>14</sup> أي الإمكانيات

14 بليث (هنريش): البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العُمرى، دار إفريقيا، المغرب، 1991م، ص 25.

اللفظية، وحين يختار الشاعر نمطاً من التعبير اللفظي تنصبُ جهود الناقد على تفسير هذا الاختيار من الناحية الأسلوبية، فلما أتت القصيدة كلها على لسان السيِّدة عائشة رضي الله عنها، ما خلا البيتين الأول والثاني منها اللذين ظهر فيهما ضمير المتكلم الدالّ على الشاعر؛ أدركنا أنّ وراء هذا الاختيار اللفظي للضمير رغبة في استحضار الغائب ليكون ماثلاً في ذهن السامع في صورة الحاضر، وبذلك نفسّر عدول الشاعر عن ضمير المتكلم الدالّ عليه إلى ضمير المتكلم الدالّ على أم المؤمنين.

يُظهرُ هذا النمطُ من العدول اللفظي براعة الشاعر في توجيه خطاب المدح، بصرفِ موضوع القصيدة إلى غرضِ ضميريّ هو الفخر بالذات، فظاهرُ القصيدة يدلُّ على أنّها في (غرض المدح)، لأنّ الشاعر يمدح بها أم المؤمنين، لكنّ دراسة البنية اللفظية تشير إلى أنّ القصيدة تعدل عن ذلك الغرض الظاهر إلى غرضٍ آخر هو (غرض الفخر)، وكان هذا العدولُ بإجراء ضمير التكلّم ليدلّ على أم المؤمنين رضي الله عنها، بعد أن ترك الشاعر لها الكلام، وأجرى القصيدة على لسانها، وذلك لأنّ غياب شخص الشاعر عن الكلام في القصيدة (سوى البيتين الأولين)، يسمح للقارئ أن يتصوّر الحدّث في صورته الآنيّة، أعني صورة أم المؤمنين تتحدّث عن ذاتها، لا صورة الشاعر الذي يتحدّث عنها، فيبدو لسان الحالِ أصدق في التعبير، لمكانة المتكلّمة، إذ تأتي قيمة الخطاب من عظيم مقامها، وهذا ما أفاده حضورها في القصيدة بضمير المتكلم دون ضمير الغائب على لسان الشاعر.

قد يتوهم القارئ المتعجّلُ لأبيات أنّ ضمير المتكلم الدالّ على الشاعر يعود إلى الظهور في البنية اللغوية للقصيدة في البيت الثاني والثلاثين، وما جاء بعده من الأبيات إلى البيت الثاني والأربعين، لكنّ المدقق في دلالة الضمير يجد البيت الثاني والأربعين يدلُّ على أنّ كلّ الأبيات المذكورة (32-41) هي في مضمون ضمير المتكلم العائد إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهذا تأكيدٌ آخر لحضور ضمير المتكلم العائد إليها.

غَلَبَ ضميرُ المتكلمِ المتَّصلُ في القصيدة، ما خلا موضعين جاء فيهما الضمير منفصلاً، وقد عاد ضميرُ المتكلمِ المنفصلُ في الموضعين إلى أمِّ المؤمنين، ولا يعود لفظ (أنا) في القصيدة إلى الشاعر البتَّة، وهذا من أدبِ الكلام في حضرة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، وإذ يختفي الضمير المنفصلُ (أنا) الدالُّ على الشاعر تَظَهَّرَ عوضاً عنه ياءُ المتكلمِ المتَّصلةُ الدالَّةُ عليه، وتكرَّرَ ظهورها ثلاثَ مرَّاتٍ في افتتاحية القصيدة ثمَّ غابت عنها، وقد جاءت إحداها في مقام تصغير الذات في حضرة ذِكرِ مقام عائشة رضي الله عنها «ما شأنُ أمِّ المؤمنين وشاني؟» ولا يخفى أنَّ حضور ضمير المتكلمِ بصيغته المنفصلة (أنا) لا يَحْسُنُ في موضع حضور صاحب المقام الأعلى من المتكلمِ، لأنَّ فيه جِهارة إبراز الذات. صحيح أنَّ الضمير (أنا) اسمٌ مَكْنِيٌّ موضوعٌ للدلالة على المتكلمِ، لكنَّ هذا المعنى معجميٌّ، وتقتصر وظيفة المعجم على أن يشير إلى معنى اللفظ في أصل الوضع اللغويِّ، لكنَّ اللفظ يكتسبُ دلالاتٍ إضافيةً تبعاً لاستخدامه في الكلام، ولذلك يجب أن نفرِّقَ في دلالة الألفاظ بين الدلالة المركزية التي تقتصر على الجانب المعجميِّ، والدلالة الهامشيَّة التي تتكوَّن من الظلال الاجتماعيَّة والثقافيَّة والفردية<sup>15</sup>، فمثلاً قد يكتسب لفظ (أنا) دلالاتٍ غيرَ معجميةٍ، منها ظهور الذات في غير ما ينبغي لها من مواضع الظهور، نحو: «قال ما منعك ألاَّ تسجدَ إذ أمرتُك، قالَ أنا خيرٌ منه»<sup>16</sup>، فلفظ (أنا) أدلُّ على الكبر من اللفظ البديل المُفْتَرَض (إني خيرٌ منه)، لأجل ذلك غابَ عن القصيدة كلُّها الضمير المنفصل (أنا) الدالُّ على ذات الشاعر، وظهر عوضاً عنه الضمير المنفصلُ (أنا) الدالُّ على ذات أمِّ المؤمنين عائشة في خطاب مَنْ جَدَّ فَضَّلَهَا (أنا بكُرُّه العذراء...) (أنا ابنة الصديق...)، فَحَمَلَ لَفْظُ الضمير (أنا) في الموضعين الملامة للمتجاهل لِقَدْرِها، وفيه أيضاً دلالةُ الفخر بأنَّها أحبُّ نساء الرِّسولِ إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما نصَّ على

١٥ للبحث في مفهوم الدلالة المركزية ومفهوم الدلالة الهامشيَّة للألفاظ انظر أنيس (د. إبراهيم): دلالة الألفاظ، المكتبة الأنجلو مصريَّة، ط٥، ٤٨٩١م، ص ٦٠١ - ٧٠١.

١٦ سورة الأعراف: الآية ٢١.

ذلك المروي من الحديث الشريف<sup>17</sup>.

بعد دراسة ضمير المتكلم نَشْرَعُ في تحليل الدلالات اللفظية لظاهرة إيثار الإظهار على الإضمار في أسماء العلم المذكورة في القصيدة.

## 2. إيثار الإظهار على الإضمار في العلمية

تتجلى الوظيفة الأسلوبية للضمائر في أنها تحوّل دون تكرار لفظ الاسم على نحو يُضعف الأسلوب التركيبي للجملة في العربية، فإذا قلت: (فهم زيد الكلام وحفظ الكلام كله)، لم يكن لتكرار لفظ (الكلام) في هذه الجملة المفترضة ما يضيف على المعنى جديداً، ولم يُقدِّم اللفظ الثاني المكرر شيئاً، وجاء حشواً في التركيب، والحشو من عيوب الأسلوب اللغوي، وكان يحسن أن يحل محلّ الاسم الظاهر ما يدل عليه من الضمائر، فنقول: (فهم زيد الكلام وحفظه كله) لأجل ذلك وُجِدَتِ الضمائر تنزيهاً للعربية عن تكرار الألفاظ من غير فضيلة معنوية. لكننا نجد عدولاً حسناً عن هذا الحكم في مواطن خاصة من الكلام، على نحو أن يكون للمكرر من الفضيلة والشرف ما يجعل الإظهار أبلغ من الإضمار، كقولك مثلاً: (جاء الأمير فأكرم الناس الأمير). تأمل تكرار لفظ الجلالة في قوله تعالى: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ»<sup>18</sup> ثم اعد الموازنة بالقول المفترض: (هو الصمد) تُدرك حقيقة ما أشرنا إليه.

لذلك قد يعدل المتكلم عن الإضمار إلى الإظهار، فتظهر الألفاظ مكررة، ولا يضعف بها الأسلوب، بل يزداد قوة وتمكناً في سياق التركيب، وثمة أمثلة جلية لهذه الظاهرة في بعض مواطن أسماء العلم في القصيدة، فما

١٧ في الحديث الشريف: «أحب النساء إلي عائشة، ومن الرجال أبوها» حسن صحيح. انظر البرهان فوري (علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٥، ٥٨٩١م، ج ٢١ / ٣٣١ رقم الحديث ٥٣٤٣.

١٨ سورة الإخلاص: الآيتان ١-٢.

دلالةً هذا الإجراء الأسلوبية على صعيد محور الاستبدال اللفظي<sup>19</sup>؟.

ندرس هذه الظاهرة في الحقل اللفظي لاسم العلم في القصيدة، وإذا أمعنا النظر في أسماء العلم على اختلاف أنواعها (الاسم، الكنية، اللقب) الواردة في القصيدة، سوف نجد أن الشاعر لا يستعيز عن تكرار اسم العلم بالضمير، ويؤثر الإظهار على الإضمار في كثير من الأحيان، فمن ذلك قوله:

يا مُبْعِضِي لَا تَأْتِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ  
فَالْبَيْتُ بَيْتِي وَالْمَكَانُ مَكَانِي  
إِنِّي خُصِصْتُ عَلَى نِسَاءِ مُحَمَّدٍ  
بِصِفَاتٍ بَرٍّ تَحْتَهُنَّ مَعَانِي

يكرّر الشاعر لفظ (محمد) في البيت الثاني، فيعدل به عن الإضمار لإرادة إحضار العلم في ذهن السامع باسمه الخاص، وهذه الدلالة لا يتضمّنهما ضمير الغيبة في القول المُفْتَرَض (إني خُصِصْتُ على نسائه). ومن دلالات العدول عن الإضمار في تكرار لفظ اسم (محمد) تنبيه الغافل عن قدره صلى الله عليه وسلم وعن قدر أزواجه رضي الله عنهنّ، ولا سيما أن الخطاب بدأ ببناء الغافل تكيّناً له لجوده لفضلها (يا مُبْعِضِي)، أمّا المُحِبُّ فيجد في تكرار لفظ العلم حصول التلذذ بتكرار اسم العلم (محمد)، وفي ذلك أيضاً تأكيد شرف قدره بإعادة ذكره، وبه يحصل الشرف لزوجه

19 يدرس محور الاستبدال اللفظي المترادف اللفظي على صعيد المستوى المعجمي، ولذلك يقرّر علماء الدلالة أن: « معرفة حدود اللفظة ودلالاتها تجعلنا نقدّر اختيار الشاعر لها مقابلةً بالمترادف أو المشترك، وموازنةً بالمجال اللغوي الذي تدور فيه». الآية (د. فايز): علم الدلالة النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق، 1991م، ص 113. غير أنني أرى ضرورة توسيع مفهوم الترادف على صعيد علم الدلالة التطبيقية ليشمل ظواهر لفظية أوسع من المقابلات المعجمية بين الألفاظ وتطورها، فهذا المفهوم الضيق (للترادف) مقصور على التشارك اللفظي المعجمي، وأعني الأشاع الذي تحتمل فيه الضمائر وغيرها كأسماء الإشارة معنى الترادف في الاستبدال اللفظي، وبذلك نخرج باللفظ من ضيق الترادف المعجمي إلى الترادف الدلالي، ويصبح من واجب علم الدلالة حينئذ أن يبحث في دلالات الاختيار اللفظي للضمير من دون العائد إليه، أو أسباب العدول عن هذا الاختيار إلى الإظهار.

رضوان الله عليها، لكنَّ هذا التكرار يحكُّمه الذوق بأساليب العرب في التكرار، فلا يجري على نحو رتيبٍ يملُّه السامع.

نجد الشاعر يذكر أيضاً ألقاباً محدَّدة للنبيِّ صلى الله عليه وسلّم، مقصودةٌ لذاتها من دون غيرها من ألقابه الشريفة، وذلك لخصوصية دلالتها على ما يريده من المعاني. من ذلك قوله على لسان السيدة عائشة رضي الله عنها:

وأناه جبريلُ الأمينُ بصُورتي

فأحبَّتي المختارُ حينَ رأني

يلاحظُ أنَّ الشاعر أضمر اسمَ العَلَمِ في صدر البيت في قوله (أناه)، والهاء تعود إلى (رسول الله) في البيت السابق لهذا البيت من القصيدة، ثمَّ رجع عن ذلك خلافاً للأصل، فأظهر لقبه (المختار)، وكان المُفترَضُ في النَّسَقِ اللفظيِّ المعتاد أن يُقال: (وأناه جبريلُ الأمينُ بصورتي فأحبَّتي حينَ رأني) ولا يَلْتَبِسُ المعنى في ذهن المتلقِّي العاقل للكلام، فَهَلْ نَعُدُّ لفظَ (المختار) من الزيادة اللغوية التي لم تُضَفِ على معنى البيت شيئاً سوى أنها زيادةٌ عروضيةٌ لإقامة الوزن؟ إنَّ القول بهذا الفرضِ سقيمٌ، فالشاعر الفحلُّ لا يُعجزُه العروض، بل كان لِلْقَبِ (المختار) في سياق البيت من الدلالة اللفظية ما يشير إلى براعة الشاعر في اصطفاء الألفاظ الملائمة للمعاني، إذ أثر إظهار العَلَمِ على إضماره لمقصد دلاليٍّ هو إرادة الإشعار بتعظيم المتحدثِّ عنه، ولكننا نعلم كثرة ألقاب النبيِّ صلى الله عليه وسلّم، فلماذا انتقى الشاعر لفظَ (المختار) من دون غيره لإظهار العَلَمِ؟ الجواب عن ذلك أن لفظَ (المختار) مناسبٌ لمقتضى الكلام، إذ دلَّ في صدر البيت إلى أن جبريل - عليه السلام - حملَ صورةَ عائشة إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلّم، أي إنَّ الله تعالى اختار له زوجةً كما اختاره نبياً، فكان من مقتضيات هذا المعنى أن اصطفى الشاعر لفظَ (المختار) علماً للرَّسولِ صلى الله عليه وسلّم في هذا الموضع من البيت، فهو المختار للنبوة، وهي



التي اختارها الله زوجة للنبي، كما ورد في الحديث الشريف<sup>20</sup>، وكان هذا الاصطفاؤ اللفظي من دلائل المهارة الأسلوبية للشاعر.

يعود الشاعر إلى إثارة إظهار العلم على إضماره في مواضع أخرى من قصيدته، حتى كان ذلك من الظواهر الأسلوبية اللفظية السائدة في القصيدة، ولا سيما في اسم النبي صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك قوله على لسان عائشة رضي الله عنها:

وَسَمِعْتُ وَحْيَ اللَّهِ عِنْدَ مُحَمَّدٍ  
 مِنْ جِبْرِيلَ وَنُورَهُ يَغْشَى بَنِي  
 مَنْ ذَا يُفَاخِرُنِي وَيُنْكِرُ صُحْبَتِي  
 وَمُحَمَّدٌ فِي جِذْرِ رِبَانِي؟  
 وَأَخَذْتُ عَنْ أَبِي دِينَ مُحَمَّدٍ  
 وَهُمَا عَلَى الْإِسْلَامِ مُصْطَحِبَانِ  
 وَأَبِي أَقَامَ الدِّينَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ  
 فَالْتَّصَلُ نَصْلِي وَالسَّنَانُ سِنَانِي

45

٢٠ عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أرئتك في المنام مرتين، أرى أن رجلاً يحملك في سرقفة حرير، فيقول هذه امرأتك، فأكشف فأراك فأقول: إن كان هذا من عند الله يُفضيه»، ومن المعلوم أن رؤيا النبي بمنزلة الوحي، وسرقفة الحرير: القطعة منه. انظر الحديث لدى ابن عساكر (عبد الرحمن بن محمد، أبو منصور): الأربعة في مناقب أمهات المؤمنين، تحقيق محمد مطيع الحافظ وغزوة بدير، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٠٤١هـ، ص ٨٥. أمّا الرجل المذكور في الحديث فهو جبريل عليه السلام أتى في صورة رجل، هو كذلك في رواية أخرى = في (فتح الباري). انظر ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي، أبو الفضل): فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ٩٧٣١هـ، رقم الحديث ٢٣٨٤، ١/٩١.

نجد عند دراسة المفاضلة اللفظية بين الإظهار والإضمار في الحقل اللفظي لأسماء العلم أن معيار الاختيار اللفظي يقوم على إحلال اسم العلم محل الضمير، فلم يأت العلم مُضمراً: (وهو في حجره... وأخذت عن أبي دينه... وأبي أقام الدين بعده) بل أحل الشاعر لفظ العلم محل ضميره، ويأتي هذا الاختيار اللفظي للتعبير عن العلم على مقصد التلذذ بذكر اسمه صلى الله عليه وسلم، وذلك إن أخذنا في الحسبان أن المتكلم الحقيقي في هذه القصيدة هو الشاعر، لكن هنالك متكلماً ضمناً آخر يتجلى في شخص السيدة عائشة رضي الله عنها، لأن الشاعر أجرى الكلام على لسانها، وهذا يقتضي ظهور مقصد دلالي آخر لظاهرة إظهار اسم العلم (محمد) على إضماره، وهذا المقصد هو الفخر وبيان منزلة المتكلم الضمني، أعني بذلك أم المؤمنين السيدة عائشة رضوان الله عليها.

نجد هذه الظاهرة أيضاً في تكرار لفظ الجلالة (الله)، إذ يؤثر الشاعر إظهار اللفظ على الإضمار، يقول على لسان عائشة رضي الله عنها:

وَتَكَلَّمَ اللهُ الْعَظِيمُ بِحُجَّتِي  
وَبِرَاعَتِي فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ  
وَاللَّهُ خَفَرَنِي وَعَظَّمْ حُرْمَتِي  
وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ بَرَّانِي  
وَاللَّهُ فِي الْقُرْآنِ قَدْ لَعَنَ الَّذِي  
بَعْدَ الْبِرَاءَةِ بِالْقَبِيحِ رَمَّانِي  
وَاللَّهُ وَبَّخَ مَنْ أَرَادَ تَنْقُصِي  
إِفْكَاً وَسَبَّحَ نَفْسَهُ فِي شَانِي  
وَاللَّهُ أَحْصَنَنِي بِخَاتِمِ رُسُلِهِ  
وَأَذَلَّ أَهْلَ الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ

ولا يخفى ما لتكرار لفظ الجلالة من أثر في قلب العابد المتلذذ بِذِكْرِ اسم الله تعالى، حتّى تَسْرَحَ رُوْحُهُ في ملكوت ذلك الحُبِّ من أثر ذلك التكرار مع حضور القلب الشاهد بحقائق الحب له، ولذلك نجد الشاعر يُؤثِّرُ الإظهار هنا على الإضمار، ليدلّ لفظ الجلالة على تلك المنزلة الرُوحِيَّةَ لاسم الله في قلب المؤمن، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) إلى مكانة الألفاظ وترتيبها في الكلام بحسب منزلتها من النَّفس حين قال: « إنَّ الكَلِمَ تترتَّبُ في النُّطقِ بسبب ترتُّبِ معانيها في النَّفسِ »<sup>21</sup>.

ليست هذه الظاهرة اللفظية اعتبارية في البناء اللغوي للقصيدة، أعني: ظاهرة إحلال الإظهار محل الإضمار، بل تحكُّمها قواعد ضابطة يمكننا الاصطلاح عليها ببراعة الهندسة اللفظية في بناء التركيب اللغوي في اللغة العربية، فضلاً عن خضوعها لمعايير الحس اللغوي السليقي، كالاختراز من الملامة والترتوب، أو ما يُضعف الأسلوب من جهة التركيب، ولذلك لا نجد الشاعر يُؤثِّرُ الإضمار على الإظهار إن اختلف بذلك التركيب، وفي مثل هذا الموضع يَمْنَعُ تكرار اللفظ، ويأتي بالضمير لينزل منزل الاسم المكرر للدلالة عليه، لأن التكرار اللغوي: « يخضع للقوانين الخفية التي تتحكم في العبارة »<sup>22</sup> وهذا مظهر آخر لبراعة الشاعر اللفظية يدل على مراعاته للقوانين الأسلوبية الدقيقة التي يخضع فيها اللفظ لخصائص تركيب الجملة في العربية، فلا يتكلف الإظهار طلباً لتكرار اللفظ في مواضع يجب فيها الإضمار.

لم يكتف الشاعر بإيثار إظهار لفظ العلم على إضماره، بل عمَدَ إلى الاستعانة بخصيصة تركيبية مهمة هي تقديم اللفظ: (والله خفرتني، والله وبَّخ من أراد تنقصي، والله أحصنتني بخاتم رسلي) فتعاقد التقديم والتكرار في بيان أهمية اللفظ المكرر (الله)، وأعطى تكرار لفظ الجلالة مع تقديمه على

٢١ الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م، ١/ ٠٦.

٢٢ السيّد (د. عز الدين علي): التكرير بين المؤثر والتأثير، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩١م، ص ٠٨٢.

الأفعال المذكورة دلالة الابتداء قياماً بالفعل الذي أتت جملته محلّ الخبر، فدلّ على اختصاص الله بإنجاز الفعل إنعاماً على أمّ المؤمنين وإكراماً لها، وهذا يدلّ على أنّ عناية الشاعر لم تقتصر على الجانب اللفظي من دون استحضار الجانب التركيبي، وجاء التّقديم والتّكرار لبيان أنّ تلك المناقب ليست ذاتيّة، بل هي منح ربانيّة لزوجة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:

اللّٰهُ حَبَّبَنِي لِقَلْبِ نَبِيِّهِ

وَإِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هِدَانِي

وَاللّٰهُ يُكْرِمُ مَنْ أَرَادَ كَرَامَتِي

وَيُهَيِّئُ رَبِّي مَنْ أَرَادَ هَوَانِي

فكان لإيثار الإظهار على الإضمار في العلميّة من جمال اللفظ وجلال المعنى ما يدلّ على براعة الاصطفاء اللفظي للتعبير عن المقاصد الجليّة التي أَرادها الشّاعر، فلم يقل مثلاً: (اللّٰهُ حَبَّبَنِي ... وهو يكرم) إظهاراً لفضليها وتبكيّتها لسانتها.

### 3. إيماء اللفظ إلى الشّاهد قياماً بالحجّة

تظهر في القصيدة خصيصة بارزة من خصائص الاصطفاء اللفظي، وهي إيماء اللفظ إلى الشّاهد من القرآن الكريم، أو الشّاهد من الحديث الشّريف، ونقصد بالإيماء التّلميح إلى الشّاهد لا التّصريح به، والغاية من ذلك الدّلالة على شهرة الشّاهد، ممّا يُغني عن الإتيان به في معرض القصيدة تاماً، فيأتي تلميحاً لردّ المتغافل عنه، المتجاهل له. فمِن إيماء اللفظ إلى الشّاهد من القرآن اصطفاء لفظ (سَبَّحَ) في قول الشّاعر على لسان السيّدة عائشة:

وَاللّٰهُ وَبَّخَ مَنْ أَرَادَ تَنْقُصِي

إِفْكَاً وَسَبَّحَ نَفْسَهُ فِي شَانِي

قام لَفْظُ (سَبَّحَ) في سياقه بدلالة التَّنْزِيهِ، وفيه إشارة إلى قول الله تعالى في الانتصاف لها: «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهِذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ»<sup>23</sup>، وفيه التلميح إلى التبرُّو مِمَّا أَشَاعَهُ الْمَنَافِقُ (عبدُ الله بنُ أبيِّ بنِ سلُولٍ) مَنْ الْجِنَايَةِ عَلَيْهَا، وَأَتَى الْفَلْظُ (سَبَّحَ) فِي الْقَصِيدَةِ إِيْمَاءً إِلَى حِكَايَةِ خَبْرِهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْحُجَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي بَرَاءَتِهَا، إِذْ سَبَّحَ اللهُ ذَاتَهُ فِي مَعْرُضِ ذِكْرِ مَا كَانَ مِنْ قِصَّتِهَا فِي سُورَةِ النَّوْرِ، وَجَاءَ ذَلِكَ التَّسْبِيحُ تَبْكِيتًا لِلْمَتَكَلِّمِينَ بِالْإِفْكِ، لِذَلِكَ أَثَرَ الشَّاعِرِ اصْطِفَاءً هَذَا الْفَلْظَ الْجَامِعِ (سَبَّحَ) لِهَذِهِ الْوَجْوهِ كُلِّهَا.

وممَّا يُومئُ إلى القرآن الكريم أيضاً قولُ الشَّاعرِ على لسانِ عائشة رضوان الله عليها:

إِنِّي لَطَيِّبَةٌ خُلِقْتُ لَطِيْبٍ

وَنِسَاءُ أَحْمَدَ أَطِيْبُ النَّسْوَانِ

تكرَّرَ الاشتقاقُ من الأصلِ (طَيِّبٍ)، فجاء في صدر البيت لفظ (طَيِّبَةٌ) إشارةً إلى أمِّ المؤمنين رضوان الله عليها، وأتى الكلامُ على لسانها، ثمَّ جاء الوصفُ بأنَّها مخلوقةٌ (لَطِيْبٍ)، والمقصودُ بذلك النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَتَتْ صِيغَةَ التَّفْضِيلِ (أَطِيْبٍ) لتزكية نساء النَّبِيِّ جَمِيعاً عَلَى الْعَالَمِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ، فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ مَصْدَرٍ وَاحِدٍ إِيْمَاءً إِلَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: « الْحَبِيْبَاتُ لِلْحَبِيْبِيْنَ وَالْحَبِيْبَاتُ لِلْحَبِيْبَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِيْنَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ »<sup>24</sup>، أَيِ الْخَبِيْبَاتِ مِنَ النَّسَاءِ لِلْحَبِيْبِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ، فَلْيُنْظَرْ أَوْلَئِكَ الْمَنَافِقُونَ مَنْ يَنْهَمُونَ، فَجَاءَ الْفَلْظُ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ يَنْتَقِصُ قَدْرَهَا، وَبَرَعَ الشَّاعِرُ فِي اسْتِنْقَاقِ الْفَلْظِ مِنَ الصِّفَةِ الْمَشْبَهَةِ الَّتِي تَقِيْدُ ثُبُوْتِ الصِّفَةِ وَلِزَوْمِهَا فِي الْمَوْصُوفِ، وَمِنْ اسْمِ التَّفْضِيلِ الَّذِي يَسْتَحْضِرُ انْعِقَادَ الْمَوَازِنَةِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ إِبْرَازاً لِشَأْنِ الْمُفْضَلِ عَلَى غَيْرِهِ، فَضْلاً عَنِ بَرَاعَةِ

٢٣ سورة النور: الآية ٦١.

٢٤ سورة النور: الآية ٦٢.

الشاعر في تكرار اللفظ للإيماء بتلك الحجة.

ومن ضروب الإيماء اللفظي في القصيدة الإيماء إلى لفظ الحديث الشريف، ويكون بلفظ يُلمح إلى ما فيه نص من كلام الرسول صلى الله عليه، ومثاله قول الشاعر على لسان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

وَسَبَقْتُهُنَّ إِلَى الْفَضَائِلِ كُلِّهَا

فَالسَّبْقُ سَبْقِي وَالْعِنَانُ عِنَانِي

اصطفى الشاعر لفظ (الفضائل) دالاً بذلك على مكانتها، ويومئ هذا اللفظ إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»<sup>25</sup>، وأتى لفظ (الفضائل) في البيت مشفوعاً بما يُمكن معنى (الفضل) بالسبق إليه، فأتى الشاعر بقول: (سبقتُ، السَّبْقُ، سَبْقِي)، وفي هذا التكرار تأكيد لمنزلتها في السَّبْق إلى الفَضْل، وفي اصطفاء لفظ (الفضائل) دلالة على الشاهد القائم بحجة فضائلها من الحديث الشريف.

50

#### 4. الأضداد حضورها أو غيابها في نسيج التكرار اللفظي

تكرار اللفظ ظاهرة بارزة في هذه القصيدة، ويأتي التكرار في نسيج الأضداد اللفظية تارةً، ومفارقاً له تارةً أخرى، تبعاً لمقتضى المعاني المقصودة، فما دلالات هذا الظهور أو الغياب للأضداد في مجاورة التكرار اللفظي. للإجابة عن هذا السؤال ندرس تلك الظاهرة في نسق الحقول اللفظية الآتية<sup>26</sup>: (حقل لفظ الحب)، (حقل لفظ الكره)، (حقل لفظ السبق)،

٢٥ البخاري (محمد بن إسماعيل، أبو عبدالله) الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩١م، ٣/٢٥٢١.

٢٦ لا تتفصل دراسة الحقول اللفظية عن مقتضى الدلالة، لأنها تجمع الألفاظ في حقول لغوية تدرج

(حقل لفظ البراءة)، وهي الحقول اللفظية الرئيسية السائدة في القصيدة.

نعلم أن لكل قصيدة غرضاً تدور حوله المقاصد المعنوية المتعددة التي تنتظم فيها أبيات القصيدة، لكن الشاعر حين ينظم قصيدته لا يأتي بها غفلاً من دوافع ضمنية خفية تُضاف إلى أخرى ظاهرة جلية، وأرى أن تلك الدوافع نوعان: وجدانية وموضوعية، وقد تتألفان أو تتنافران، وتدفعان إلى إنتاج الدلالة الشعرية للقصيدة، فتتحكمان في طريقة النظم وخصائص اللفظ وسمات التركيب السائدة في النص الشعري. هذه القضية داخلية في صلب عملية الإبداع الشعري، وهي قضية معقدة على الرغم من بدهية مظهرها الخارجي، وإذا فهم المتلقي للقصيدة بعض جوانب هذه العملية وقف على تفسير ظواهر الأسلوب، وربط ذلك بأغراض النظم وما يدل عليها في البنية اللفظية للنص الأدبي.

نلاحظ في القصيدة التي بين أيدينا تألف الدافعين الوجداني والموضوعي، فمكانة أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - في نفس الشاعر هي السبب الجلي الظاهر لنظم هذه القصيدة المدحية، لكن التأمل في مصادر حقولها اللفظية يُظهر ما تُخفيه الحقول اللفظية من الألم الكامن في قلب الشاعر، إذ علم أن ثمة من تجرأ أو ما زال يتجرأ على أم المؤمنين، ولذلك ظهر الحقل اللفظي الأول (حقل الحب) في مقابلة ثنائية ضدية للحقل اللفظي المفارق (حقل الكره)، وأتى سبب المعنى في هذين الحقلين اللفظيين في نسيج التكرار اللفظي. تأمل قول الشاعر في مطلع القصيدة:

ما شأن أم المؤمنين وشاني؟

هدي المحب لها وصل الشاني

ثم قوله على لسان أم المؤمنين عائشة:

تحت لفظ أعم يكون مفهومه موضع اشتراك في الدلالة اللغوية، أو موضع ترادف، أو له علاقة الجزء بالكل. للتفصيل في هذه القضية انظر عبد الجليل (منقور): علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٠٠٢م، ص ٧٨١.

## يا مُبْغِضِي لَا تَأْتِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ

### فَالْبَيْتُ بَيْتِي وَ الْمَكَانُ مَكَانِي

أتى لَفْظُ (المُحِبِّ) ضِدًّا لِلْفَظِّ (المُبْغِضِ)، وأُسْنِدُ (هُدِي) إِلَى (المُحِبِّ)، وأُسْنِدُ (ضَلَّ) إِلَى (الشَّانِي) وَأَتَتْ هَذِهِ الْمَقَابِلَةُ اللَّفْظِيَّةُ، فِي نَسِيحِ التَّكْرَارِ اللَّفْظِيِّ (شَأْنُ/ شَأْنِي/ الشَّانِي) بِتَسْهِيلِ الْهَمْزِ، وَرَسْمِ الشَّاعِرِ بِاللَّفْظِ صَوْرَتَيْنِ مُتَّفِرَتَيْنِ؛ فِي الْأُولَى صَوْرَةُ الْهُدَى الْمَوَافِقَةَ لِلْمُحِبِّ، وَفِي الثَّانِيَةِ صَوْرَةُ الضَّلَالَةِ الْمَوَافِقَةَ لِلشَّانِي، وَتَكَرَّرَتِ الْأَلْفَاظُ الْمَبْنِيَّةُ مِنْ أَصْوَاتٍ مِنْ أَحْرَفِ مَشْتَرِكَةٍ طَلِبًا لِلإِبْقَاعِ اللَّفْظِيِّ مَعَ تَوْحِي الْمَخَالَفَةِ فِي دَلَالَةِ الْمَعْنَى، فَاَنْتَظَمَ بَعْضُهَا إِيقَاعِيًّا فِي (شَانِي) مِنْ (شَأْنِي)، أَوْ فِي (شَانِي) مِنْ (شَانِي)، عَلَى مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْاِخْتِلَافِ فِي الدَّلَالَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، فَكَانَ لِهَذَا الْجِنَاسِ أْبْلَغُ الْأَثَرِ فِي إِظْهَارِ الْمَنَافَرَةِ بَيْنَ (مَوْقِفِ الْمُحِبِّ) وَ(مَوْقِفِ الْكَارِه) بَدَأَ مِنَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ لِلْقَصِيدَةِ، وَتَكَرَّرَ لَفْظُ (شَأْن) بِتَسْهِيلِ الْهَمْزِ مَرَّتَيْنِ؛ وَجَاءَ لَفْظُ (الشَّان) الْأَوَّلُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وَجَعَلَهُ الشَّاعِرُ مُضَافًا إِلَى الْكُنْيَةِ (أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ) تَذْكَيرًا بِمَنْزِلَةِ قَدْرِهَا، أَمَّا لَفْظُ (الشَّان) الثَّانِي فَجَاءَ تَحْقِيرًا لِقَدْرِ الْمُتَكَلِّمِ قِيَاسًا إِلَى قَدْرِهَا، وَنَهْرًا لِذَاتِهِ كَيْلَا يَكُونَ مَعَ الْخَائِضِينَ فِيمَا لَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ الْقَوْلِ فِي حَقِّهَا، وَلِذَلِكَ افْتَتَحَ الشَّاعِرُ الْقَصِيدَةَ بِالِاسْتِفْهَامِ التَّعْجِيبِيِّ الْإِنْكَارِيِّ (مَا شَأْنُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَشَانِي؟)، ثُمَّ التَّفَتَّ إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ، فَأَعَادَ الْكَلَامَ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَاسْتَفْتَحَ صَدْرَ الْبَيْتِ الثَّانِي بِلَفْظِ (يَا مُبْغِضِي) فَجَاءَ مُشَارِكًا لِلْفَظِّ (الشَّانِي) فِي عَجْزِ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ، وَمَقَابِلًا ضِدِّيًّا (لِلْمُحِبِّ) لَهَا الَّذِي أُسْنِدَ إِلَيْهِ الْهُدَى:

## يَا مُبْغِضِي لَا تَأْتِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ

### فَالْبَيْتُ بَيْتِي وَ الْمَكَانُ مَكَانِي

أفاد لفظ النداء توبيخ المنادى (يا مُبْغِضِي)، وجاء ذلك في نسيح التكرار اللفظي للرد على المُبْغِضِ (يا مُبْغِضِي ... البيتُ بيتي والمكانُ مكاني)،



وجاء التكرار إظهاراً لخفة عقل المنادى (مُبغضي) وإشهاراً لحماقة سلوكه، وأنَّ حاصلَ عملِهِ من زيارته هباءً منثوراً لا يُوجِرُ به، وسرابٌ بقيعةٍ لا ينفَعُ غُلَّةً، لأنَّه يدَّعي زيارةَ الرَّسولِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ويبغض عائشةَ زَوْجِهِ، متغافلاً عن أنَّ الرَّسولَ فُيْضُ ورأسُهُ في حِجْرِها، ودُفِنَ في بيتِها (البيت بيتي). إنَّ هذا الأسلوب من التكرار مع توافر الأضداد وتعاضدها في إقامة الدلالة يشير إلى عناية الشاعر باصطفاء اللفظ للتعبير عن المعنى.

تغيب الأضداد عن الحقل اللفظي الثاني (حقل السَّبِق)، ويدور المعنى فيه على سَبَقِ السَّيِّدةِ عائِشةَ لغيرها من أزواج الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ويأتي التَّعبير عن هذا السَّبِق من غير غُلُوٍّ، ولذلك يغيب ضدَّ ألفاظ السَّبِق احترازاً من الافتراء في نسبة ما لا يليق إلى غيرها من أمَّهات المؤمنين، إذ في كلِّ خيرٍ، وإنِ اجتمعتِ الفضائلُ للسَّيِّدةِ عائِشةَ<sup>27</sup>.

مع غياب الألفاظ المضادة للسَّبِق يحضُر أسلوب التكرار ويبقى سائداً في هذا الحقل اللفظي تأكيداً لمعنى السَّبِق المقصود:

وَسَبَقْتُهُنَّ إِلَى الْفَضَائِلِ كُلِّهَا  
فَالسَّبِقُ سَبَقِي وَالْعَنَانُ عَنَانِي  
مَرِيضَ النَّبِيِّ وَمَمَاتَ بَيْنَ تَرَائِبِي  
فَالْيَوْمُ يَوْمِي وَالزَّمَانُ زَمَانِي

٢٧ قال الخازن: «رُوي أنَّ عائِشةَ كانت تفتخرُ بأشياء أُعطيَتْها، لم تُعْطِها امرأةٌ غيرها، منها أنَّ جبريل عليه السَّلام أتى بصورتها في سَرْقَةِ حريرٍ، وقال: هذه زوجتك، وروي أنَّه أتى بصورتها في راحته، ومنها أنَّ النَّبيَّ لم يتزوج بكراً غيرها، وفِيضَ رسولِ الله في حِجْرِها وفي يومها، ودُفِنَ في بيتِها، وكان ينزل عليه الوحي وهي معه في اللِّحاف، ونزلت براءتها من السَّماء، وأنها ابنةُ الصَّديق، وخليفة رسول الله». الخازن (علاء الدين عليُّ بن محمَّد بن إبراهيم البغدادي): لِبَابِ التَّأْوِيلِ فِي مَعَانِي التَّنْزِيلِ، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، ج ٥ / ٥٦.

زَوْجِي رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَرْ غَيْرَهُ

اللَّهُ زَوَّجَنِي بِهِ وَحَبَّانِي

جاء التكرار اللفظي تأكيداً للمعنى: (سَبَقْتُهُنَّ/ السَّبَقَ سَبَقِي/ العنان عِنَانِي/ اليوم يومي/ الزَّمانَ زمانِي)، وجاء لفظ (زوج) اسماً مضافاً إلى ياء المتكلم دالاً في سياقه على أنها بَكَرٌ لم تَعْرِفْ غَيْرَهُ من قَبْلِهِ بخلاف كلِّ زوجاته: (زوجي رسولُ الله لم أَرْ غَيْرَهُ)، ثمَّ جاء اللفظ في صيغة فعلية (زَوَّجَنِي) مستغرقاً في الزَّمن الماضي، (الله زَوَّجَنِي بِهِ) وقدَّم لفظ الجلالة للعناية والأهمية والنَّخصيص بالفعل، فكان ذلك التكرار إثباتاً للفضيلة.

تغيب الأضداد أيضاً عن الحقل اللفظي الثالث (حقل البراءة) إثباتاً لتلك الفضيلة في شخصها الكريم، فلا يكون للبراءة ضدُّ يشوب معناه، لكنَّ التكرار يبقى سائداً في البنية اللفظية تأكيداً لمعنى (البراءة)، وهذا من أساليب اصطفاء اللفظ البارعة في القصيدة:

وَتَكَلَّمَ اللَّهُ الْعَظِيمُ بِحُجَّتِي

وَبِرَاعَتِي فِي مُحْكَمِ الْقُرْآنِ

وَاللَّهُ حَفَرَنِي وَعَظَّمْ حُرْمَتِي

وَعَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ بَرَّانِي

وَاللَّهُ فِي الْقُرْآنِ قَدْ لَعَنَ الَّذِي

بَعْدَ الْبِرَاءَةِ بِالْقَبِيحِ رَمَّانِي

تكرَّر ما يدلُّ على لفظ (البراءة) من مثل: (براعتي في مُحْكَمِ الْقُرْآنِ/ وعلى لسان نَبِيِّهِ بَرَّانِي/ والله في الْقُرْآنِ ... بعد البراءة ... ) ونَسَجَ تكرار لفظ (البراءة) بتكرار لفظ الْقُرْآنِ مرَّتين، وأتبع لفظَ (البراءة) بما يدلُّ على ما يناسبه في معنى حقله اللفظي وهو لفظ (الإحصان):

والله وَبَّخَ مَنْ أَرَادَ تَنْقُصِي  
إِفْكَاً وَسَبَّحَ نَفْسَهُ فِي شَانِي  
إِنِّي لِمُحْصَنَةٌ الْإِزَارِ بَرِيئَةٌ  
وَدَلِيلُ حُسْنِ طَهَارَتِي إِحْصَانِي  
وَالله أَحْصَنَنِي بِخَاتِمِ رُسُلِهِ  
وَأَذَلَّ أَهْلَ الْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ

تَكَرَّرَتْ أَلْفَاظُ (الإحصان): (مُحْصَنَةٌ/ إِحْصَانِي/ أَحْصَنَنِي)، وَتَلَقَّيْ دَلَالَةُ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ بِالْحَقْلِ اللَّفْظِيِّ (لِلْبِرَاءَةِ)، وَلِذَلِكَ نَسَجَ الشَّاعِرُ مَا يَدُلُّ عَلَى لَفْظِ (الْبِرَاءَةِ) فِي دَرَجِ تَكَرَّرِ أَلْفَاظِ الإِحْصَانِ: (إِنِّي لِمُحْصَنَةٌ الْإِزَارِ بَرِيئَةٌ).

غَابَتْ فِي هَذَا الْحَقْلِ اللَّفْظِيِّ الْأَضْدَادُ اللَّفْظِيَّةُ، وَسَادَ تَكَرَّرُ لَفْظِ (الْبِرَاءَةِ) وَمَا يَعُضِدُهُ. فِي حِينِ ظَهَرَتْ الْأَضْدَادُ فِي حَقْلِي (الْحُبِّ وَالْكَرْهِ) لِرَسْمِ صُورَةِ ضِدِّيَّةٍ لِهَدَايَةِ الْمُحِبِّ لَهَا، وَضَلَالَةِ الشَّانِي الْمُبْغِضِ، وَلَا يَعدَمُ الشَّرِيفُ كَارَهَا لَهُ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَنْقُصَةٌ لِلشَّرِيفِ.

55

يَعُودُ الشَّاعِرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالْحَقْلِ اللَّفْظِيِّ لِلسَّبْقِ، لِإِثْبَاتِ سَبْقِ أَبِيهَا الصَّدِيقِ كَمَا أَنْبَأَهُ لَهَا مِنْ قَبْلُ، مِنْ غَيْرِ غَلْوٍ فِي الْمَفَاضِلَةِ بَيْنِ الصَّحَابَةِ، إِذْ فِي كُلِّ خَيْرٍ أَيْضاً، وَلِهَذَا السَّبَبُ تَغْيِبُ أَضْدَادِ لَفْظِ السَّبْقِ، احْتِرَازاً مِنْ أَنْ يذْهَبَ السَّامِعُ إِلَى الْغُلْوِ فِي ذَلِكَ فَيُنْسَبَ إِلَى الصَّحَابَةِ - رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - مَا لَا يَجُوزُ مِنَ الْكَلَامِ، وَهَذَا احْتِرَازٌ يَدُلُّ عَلَى بِلَاغَةِ الشَّاعِرِ فِي اصْطِفَاءِ الْأَلْفَاظِ. نَجَدُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ عَلَى لِسَانِ الصَّدِيقَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

وَأَبِي أَقَامَ الدِّينَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ  
فَالنَّصْلُ نَصْلِي وَالسَّنَانُ سِنَانِي

وَالْفَخْرُ فَخْرِي وَالْخِلاَفَةُ فِي أَبِي  
 حَسَنِي بِهِذَا مَفْخَرًا وَكَفَانِي  
 ثَانِيهِ فِي الْغَارِ الَّذِي سَدَّ الْكُوَى  
 بِرِدَائِهِ أَكْرَمَ بِهِ مِنْ ثَانٍ  
 وَجَفَا الْغِنَى حَتَّى تَخَلَّلَ بِالْعَبَا  
 زُهْدًا وَأَذَعَنَ أَيَّمَا إِذْعَانٍ  
 وَتَخَلَّلْتُ مَعَهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ  
 وَأَتَتْهُ بِشْرَى اللَّهِ بِالرَّضْوَانِ  
 سَبَقَ الصَّحَابَةَ وَالْقَرَابَةَ لِلْهُدَى  
 هُوَ شَيْخُهُمْ فِي الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ  
 وَاللَّهُ مَا اسْتَبَقُوا لِنَيْلِ فَضِيلَةٍ  
 مِثْلَ اسْتِبَاقِ الْخَيْلِ يَوْمَ رِهَانٍ  
 إِلَّا وَطَارَ أَبِي إِلَى عَلِيَّائِهَا  
 فَمَكَانُهُ مِنْهَا أَجَلٌ مَكَانٍ

تأمل تكرار الألفاظ (وأبي أقام الدين/ والخلافة في أبي)، (الفخر/ فخري/ مَفْخَرًا)، (ثانيه في الغار/ أكرم به من ثان)، (تخلل بالعبا زهداً/ أذعنَ أَيَّمَا إِذْعَانٍ/ وتخللت معه ملائكة السماء). يأتي التكرار اللفظي في هذا الحقل مختوماً بالسبق، إبرازاً للمعنى المقصود (سبق/ استباق)، وتبدو سمة التكرار اللفظي سائدة في البنية اللفظية، حتى إنَّ القارئ ليدهش من غزارة حضورها، وجمال إيقاعها، وجلال ما انصرفت إليه من معانٍ.

تعود الثنائيات اللفظية الضدية إلى الظهور في (حَقْلِي الحَبِّ والكُرْهِ)، ويكون الكُرْهُ محلَّ قلب المنافق الذي فرَّق بين الصَّحابة، وفرَّق في الحَبِّ بين أهل البيت، وقد جاء اللفظ وعاءً حاملاً لذلك المعنى على أحسن وجه:

وَيْلٌ لِعَبْدِ خَانَ آلِ مُحَمَّدٍ

بِعَدَاوَةِ الْأَزْوَاجِ وَالْأَخْتَانِ

أتى لفظ (عَبْدٍ) مُنْكَرًا إيماءً إلى التَّحْقِيرِ والوعيد بالويل، وتلميحاً إلى المنافق، لأنَّه عَبْدٌ نَفَاقٍ في قلبه ولسانه، وَعَبْدٌ مَعْصِيَتِهِ المَأْخُوذُ بِهَا، ثُمَّ نَجَدَ الشَّاعِرَ بَعْدَ أُبْيَاتٍ يَصْطَفِي لُفْظَ (عَبْدٍ) فِي سِيَاقٍ آخَرَ، لَكِنَّهُ يَأْتِي بِاللَّفْظِ مَعْرِفَةً، فَيَأْتِي مِضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الهَاءِ الدَّالِّ عَلَى الذَّاتِ الإِلَهِيَّةِ، وَذَلِكَ فِي ذِكْرِ أَحْوَالِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمُ:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَصْرَةَ عَبْدِهِ

مَنْ ذَا يُطِيقُ لَهُ عَلَى خُذْلَانٍ؟

57

في هذا الاصطفاء اللفظي (لِعَبْدٍ) و(عَبْدِهِ) إيماءً إلى عَقْدِ المِقَابِلَةِ الضدية، بين حال المنافق الفاجر، وحال البِرِّ النَّقِيِّ، والحالان متضادتان، تَنَفَّرُ إِحْدَاهُمَا مِنَ الْأُخْرَى، وَيَصْطَفِي الشَّاعِرُ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا النُّفُورِ وَالتَّضَادِّ بِاسْتِخْدَامِ الصِّيغَتَيْنِ التَّنْكِيرِ وَالتَّعْرِيفِ، وَتَأْتِي أَلْفَاظُ (الحَبِّ) فِي حَقْلِ لَفْظِيٍّ جَامِعٍ لِلهَدَايَةِ، وَيَكُونُ الحَبُّ مَحَلَّ قَلْبِ المُؤْمِنِ الجَامِعِ لِحَبِّ الصَّحَابَةِ وَقَرَابَةِ آلِ البَيْتِ:

طُوبَى لِمَنْ وَالَى جَمَاعَةَ صَحْبِهِ

وَيَكُونُ مِنْ أَحْبَابِهِ الحَسَنَانِ

بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالقَرَابَةِ أُلْفَةً

لَا تَسْتَحِيلُ بِنَزْعَةِ الشَّيْطَانِ

يجتمع في (حقل الحب) لفظ (الحسان) سبطا الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته، ويأتي لفظ (الحسان) في آخر البيت مقابلاً للفظ (صحبته) في آخر صدر البيت في انسجام دلالي معنوي يدركه القارئ المتمعن لآلية اصطفاء اللفظ في قصيدة ابن بهيج، للتعبير عن مراقبة الله تعالى في حزمة أصحابه وتعظيم أهل بيته، إذ يبدأ البيت بلفظ (الصحابة)، ويُعطف عليه لفظ (القرابة)، وتوحي هذه الألفاظ الثلاثة (الحسان/ الصحابة/ القرابة) في علاقاتها التركيبية الظرفية التي دل عليها لفظ الظرف (بين) بالجلال والائتلاف لفظاً ومعنى، وتظهر قيمة اللفظ في اختيار المُشترِك المعنوي، ويتحقق شرط البراعة بحسن اختيار الألفاظ وحسن التأليف بينها:

هُم كالأصابع في اليدين توأماً

هل تستوي كفٌ بغير بنان؟

حُبُّ البتولِ وبِعْلِها لم يَخْتَلَفْ

من ملة الإسلام فيه اثنان

لننظر مثلاً إلى لفظي (الأصابع/ اليدين) كيف انتظما للدلالة على امتناع وقوع القطيعة بين الصحابة والقرابة في قلب المؤمن، ثم جاء الاستفهام في قوله: «هل تستوي كفٌ بغير بنان؟» دالاً على نفي حدوث تلك القطيعة، فعاد ما ظاهره الاستفهام إلى معنى النفي، أي: لا تستوي الكفٌ بغير بنانها، وجاء لفظاً (الكف/ البنان) في عجز البيت مؤتلفين مناسبين لمقتضى دلالة (الأصابع/ اليدين) في صدر البيت، ويؤكد هذه الحقيقة إطلاق لفظ (اثنان) تذكيراً للدلالة على كل فرد ممكن في ملة الإسلام: (حُبُّ البتولِ وبِعْلِها لم يَخْتَلَفْ/ من ملة الإسلام فيه اثنان) ويأتي لفظ (اثنان) مكيماً في سياقه من هذا البيت، وتأتي بقية الألفاظ كذلك، فلا إمكان لحذف أي كلمة من البيت، إذ كل لفظ فيه مستقرٌ مكيماً، فإن نزعته لفظاً منه اختل التركيب أو قصر عن المعنى، وانحرفت الدلالة عن المقصود، وهذا من مهارة الشاعر في تمكين ألفاظ البيت في تراكيبها. مما يضيف على البناء اللفظي أناقاً أدبية

ورشاقة تعبيرية.

ترسم البنية اللفظية في أواخر القصيدة صورةً ضديةً لحالين متنافرتين (الحب/ الكره):

مَنْ حَبَّبِي فَلْيَجْتَنِبْ مَنْ سَبَّبِي  
إِنْ كَانَ صَانَ مَحَبَّتِي وَرَعَانِي  
وَإِذَا مُحِبِّي قَدْ أَلْظَ بِمُنْغِضِي  
فَكِلَاهُمَا فِي الْبُغْضِ مُسْتَوِيَانِ

الحال الأولى: حال المحب، ويؤديها التكرار اللفظي (حبي، محبتي، محبي)، والحال الثانية: حال المُنْغِضِ، والأصل انعقاد التنافر بينهما، لذلك كانت الحقيقة المنطقية في استحالة اجتماعهما، إلا أن يقع المحب في المناقضة، فيجلس إلى أهل البغض، فيظهر نفاقه في الحب وتتنفي صيانه لحق المحبوب: (فكلاهما في البغض مستويان)، ويتأكد حضور حق الحب وحق الكره في صورة ضدية جديدة، تصوّر عاقبتين مقابلتين للحب والكره، هما: هوان المُنْغِضِ وخسرانه، وكرامة المحب وفلاحه:

إِنِّي لَأَمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ أَبِي  
حُبِّي فَسَوْفَ يَبُوءُ بِالْخُسْرَانِ  
اللَّهُ حَبَّبَنِي لِقَلْبِ نَبِيِّهِ  
وَإِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هِدَانِي  
وَاللَّهُ يُكْرِمُ مَنْ أَرَادَ كِرَامَتِي  
وَيُهِينُ رَبِّي مَنْ أَرَادَ هَوَانِي

يدور لفظ (الكرامة) في فَلَكَ معنى (الحبِّ)، فَمِنْ كرامَتِها مَحَبَّتُها، وبمَحَبَّتِها يكون الإِكرامُ لِمَحَبَّتِها (يكرم / كرامتي)، ويدور لفظ (الهوان) في معنى (الكره)، لينتهي بخسران الكارهِ الشَّانئ (ويهيئُ رَبِّي مَنْ أَرادَ هوانِي)، وبذلك تأتي الأضدادُ في نسيجِ التَّكرارِ اللفظيِّ للتَّعبيرِ عن مقاصد الدِّلالة، وفي ذلك ظهورُ براعةِ الشَّاعرِ في اصطفاء الألفاظ.

### وفي الختام نستخلص النتائج الآتية:

تستمدُّ البنيةُ اللفظيَّةُ للقصيدة مصادرها من مخزونٍ لغويٍّ يعكس ما في نفس الشَّاعر من حَمِيَّةٍ لَأَمِّ الْمُؤمِنين، وقد برزَ ذلك في الدِّلالاتِ التَّعبيريَّةِ لضمير المتكلم، وفي ظاهرة العدول عن الإضمار إلى الإظهار على صعيد دراسة محور الاستبدال اللفظيِّ في العَلَمِيَّةِ، لإظهار القيمة المُثلى التي حَمَلَتْها أسماءُ العَلَمِ في القصيدة، وما لهذه الأسماء من دلالاتٍ دينيَّةٍ وتأثيرٍ روحيٍّ في النَّفس، وجاء معيارُ الاختيار اللفظيِّ لدى الشَّاعر دالاً على سعة ثقافته في القدرة على تطويع اللفظ ليقوم بالحُجَّةِ، وأتى ذلك كلُّه في إيماءٍ لطيفٍ يستحضر الشَّاهدَ استحضاراً فِطْناً، وكان مِنْ أبرز ظواهر اللفظ حضور أسلوب التَّكرار اللفظيِّ في القصيدة، وقد جاء ذلك التَّكرار قائماً بالمعاني المقصودة، ولم تكن الألفاظ المكرَّرة قلقاً في التَّركيب، بل جاءت مستقرَّةً مَكِينَةً فيه، وبعضها هو عمودُ الرِّحى للمقاصد المعنويَّةِ الرِّئيسة في القصيدة، أمَّا التَّنائيات اللفظيَّة الضديَّة فقد كانت تَظْهَرُ تارةً وتغيب أخرى تبعاً لمقتضى الدِّلالة في بعض الحقول اللفظيَّة من دون غيرها، وسبب ذلك الاحترازُ اللفظيُّ، كيلا ينصرف ذهنُ السَّامعِ إلى ما لا يَحْتَمِلُهُ اللفظ من المعنى.

المصادر والمراجع:



1. أنيس (د. إبراهيم): دلالة الألفاظ، المكتبة الأنجلو مصريّة، ط5، 1984م.
2. البخاري (محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله) الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، 1987م.
3. البرهان فوري (علاء الدين علي المنقي بن حسام الدين) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط5، 1985م.
4. بليث (هنريش): البلاغة والأسلوبية، ترجمة محمد العمري، دار إفريقيا، المغرب، 1999م.
5. ابن بهيج (موسى بن محمد بن عبد الله، أبو عمران): القصيدة الوضاحية في مدح السيدة عائشة أم المؤمنين، تحقيق: نظام محمد صالح يعقوبي، دار البشائر، بيروت، ط1، 2002م.
6. الجرجاني (عبد القاهر): دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي، بيروت، 1995م.
7. ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي، أبو الفضل): فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ.
8. ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي، أبو الفضل): المعجم المفهرس أو تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنتورة، تحقيق محمد شكور الميادين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998م.
9. الخازن (علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي): لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، 1979م.
10. ابن خير الإشبيلي (محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي، أبو بكر): فهرسة ابن خير، تحقيق محمد فؤاد منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
11. الداية (د. فايز): علم الدلالة النظرية والتطبيق، دار الفكر، دمشق، 1996.
12. ابن رشيقي القيرواني (الحسن بن رشيقي، أبو علي): الغمضة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م.
13. السلفي (أحمد بن محمد، أبو طاهر): معجم السفر، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، تحقيق عبد الله عمر البارودي، د.ت.
14. السيد (د. عز الدين علي): التكرير بين المنير والتأثير، عالم الكتب، بيروت، 1978م.
15. عبد الجليل (منقور): علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م.

16. ابن عساكر (عبد الرَّحْمَن بن محمَّد، أبو منصور): الأربعة في مناقب أمَّهات المؤمنين، تحقيق محمَّد مطيع الحافظ وغزوة بدير، دار الفكر، دمشق، ط1، 1406 هـ .
17. القضاعيُّ (محمَّد بن عبد الله، أبو عبد الله): التكملة لكتاب الصلَّة، تحقيق: عبد السَّلام الهَرَّاس، دار الفكر للطباعة، بيروت، 1995م.
18. المقرِّي (أحمد بن محمَّد): نفخ الطَّيِّب من غصن الأندلس الرُّطيب، تحقيق د. إحسان عباس دار صادر، بيروت، 1388 هـ.
19. ابن منظور (محمَّد بن مكرم الأَنْصاري): لسان العرب، تحقيق: أمين محمد عبد الوهَّاب، محمَّد الصَّادق العبيدي، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، ط 3، 1998م.
20. أبو هلال العسكريُّ (الحسن بن عبد الله بن سهل): كتاب الصَّناعتين الكتابة والشَّعر، تحقيق: علي محمَّد البجاوي ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1986م.